



-1-

أكثر المربيين والدعاة والمصلحين ينظرون إلى الأفعال فيجعلونها هدفاً للتغيير، فيحرصون مثلاً على حمل النساء على الحجاب أو صرف الرجال عن التدخين.

ولكن "الأفعال" لا تنفصل أبداً عن "الأفكار"، أو بعبارة أخرى: "إن عالم الأفعال ليس سوى ترجمة وامتداد لعالم الأفكار" كما كان يقول مالك بن نبي - رحمه الله -. فإذا أردت التغيير الحقيقي فلا تهتم بالأفعال، بل غير الأفكار تتغير الأفعال تبعاً لها.

لو أن أحدهنا رأى - على سبيل المثال - صبياً يعتدي على قطة أو على ولد ضعيف فسوف يزجره وينهاده، وقد يمنعه باليد فيحبسه عن العداون. لقد نجحنا فعلاً في وقف العمل السيئ، لكننا لم تنتبه إلى أن الدافع الذي حمل الصبي على عداونه الأول ما يزال موجوداً، وإن فسوف يكرره مرات ومرات.

إنك تغير الفعل السيئ فتقوم بالعمل الأسهل، ولكنه حل مؤقت لا يدوم. ما الحل الأفضل؟

إنه العمل الأصعب: تغيير الفكرة أو القناعة التي دفعت الصبي إلى العداون أصلاً، وهي فكرة (أو سلسلة أفكار) بسيطة: "القوة تصنع الحق".

أنا قوي، إذن من حقي أن أصنع بالضعف ما أشاء". عليك أن تصحح تلك السلسلة: "القوة لا تصنع الحق ولا تغير الجوهر، فيبقى الحق حقاً ولو كان ضعيفاً والباطل باطلًا ولو كان قوياً.

أنت قوي ولكن يوجد من هو أقوى منك، وعندما تجعل قوتك مسوغاً للاعتداء على من هو أضعف منك فإنك تجعل قوة غيرك مسوغاً للاعتداء عليك".

إذا صحيت الصبي أفكاره السلبية عن القوة والحق والعدوان فسوف يمتنع عن الاعتداء على الضعفاء في تلك المرة المفردة وفي سائر الأوقات.

-2-

إن تغيير الأفعال عمل بسيط وساذج، سريع في نتائجه لكنه قصير في عمره. تغيير الأفكار أصعب منه وأطول عمرًا، لكنه ليس غاية المطاف كذلك، فما هو التغيير الأسماى الذي يدوم أثره وتنتشر بركته؟ إنه تغيير القيم، وهذا هو لب منهج التغيير الإسلامي الذي قلَّ أن يتبعه إليه المربيون والمصلحون.

إن الإسلام لا يقول للطفل "لا تقطع ذنب الهرة الصغيرة" وللكبير "لا تأكل مال الأجير الضعيف" وللمرأة "لا تحملني خادمتك الضعيفة حِملً أربعة من الرجال الأقوباء"... إن ديننا العظيم يبني القيم الكبرى، كالرحمة والعدل والخير والإحسان، فتستقر في عقل المسلم الواعي وفي شعوره اللاواعي وتصبح هي الأصل الذي منه ينطلق كل عمل وينتفي كل سلوك. فإذا زرعنا أمثل تلك القيم الصالحة في نفس الصبي الذي اعتمد على الضعفاء -في مثالنا السابق- فلن يتوقف عن ذلك الفعل السيء فحسب، بل إنه سيصبح هو نفسه من جنود الخير وحرّاس الفضيلة فيمنع غيره من الأقوباء من الاعتداء على الضعفاء.

هذا هو التحول الأهم على الإطلاق، وهو الإصلاح الحقيقي، لأن تغيير الأفعال لا يدوم، وهو يحتاج إلى قوة رادعة من الخارج، فإذا زالت القوة زوالاً نهائياً أو غابت غياباً مؤقتاً عاد الإنسان إلى الفعل السيء.

أما القيم فإنها تبقى غالباً إلى آخر العمر، وهي تولد فعلاً ذاتياً، أي أن المحرك للفعل الطيب سيصبح محركاً داخل النفس وليس محركاً خارجياً من خارجها.

عندما يُرى المرء على الرحمة والعدل وتُتمي هذه القيم حتى تستقر جذورها في أعماق نفسه وتسسيطر القناعة بها على منطقه وعقله فإنه لن يظلم أحداً ولن يعتدي على أحد، لأنه -لو فعل- سيقع ضحية لعقاب فظيع، هو "تأنيب الضمير" أو "لوم النفس"، وهو عقاب كاف يردع صاحبه عن القسوة والظلم والعدوان. وهنا نصل إلى تكملة مهمة لمقالة "الإصلاح بالدعوة" التي نشرتها قبل أيام.

-3-

قلت في تلك المقالة إن الدعوة والإقناع هما الطريق إلى الحياة الإسلامية الصحيحة، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعتمد على الشرط والحرس لفرض الإسلام على الناس، بل ربي الإيمان في نفوسهم وزرع في قلوبهم خوف الله، ثم أخبرهم بما أحل الله لهم وما حرم عليهم فاستجابوا لقانون الإسلام وكانوا هم الحرّاس على حمايته وتطبيقه. قلت ذلك فاعتراض على قوم وقالوا: فأين القانون وأين الثواب والعقاب؟

أنا لم أقل إن الناس يعيشون بلا قانون. إن القانون هو الذي يحفظ الحقوق وينظم الحياة ويمنع الظلم والعدوان، والقانون يحتاج إلى قوة تحميء وتمنع مخالفته، والقوة لا تعمل إلا من خلال منظومة "الثواب والعقاب". ولكن سلطان القانون والردع بالعقوبات العملية هما خط الدفاع الأخير للجماعة المسلمة ولكل جماعة بشرية صالحة.

إن العقاب والثواب هما أُسس التربية وأساسها بلا ريب، ولكنهما يصبحان مفهومين "حيوانيين" لا مفهومين "إنسانيين" إذا نظر إليهما بمعناهما الحسي (البدني) المجرد، فأنتم ترون حيوانات السيرك كيف تقوم بالحركات والاستعراضات وفي يد مدربها السوط وفي جيده قطع الحلوى، فإذا أخطأت جُلدت وإذا أحسنت مُنحت الحلوى! فكلما تجلّ العقاب في شكله الحسي كان أقرب إلى النهج الحيواني، وكلما اعتمد المربيون على هذا الأسلوب -الآباء في البيوت والمعلمون في المدارس- كانوا أقرب إلى إنتاج نماذج حيوانية منهم إلى إنتاج نماذج إنسانية.

-4-

لا يصبح الثواب والعقاب إنسانيين إلا عندما ينتقل مصدرهما من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي للإنسان، من الرادع

المنفصل عن النفس (الأب والأم أو المعلم ومدير المدرسة أو الشرطي والمحكمة) إلى النفس ذاتها. هذا الرادع هو ما نعبر عنه في كلامنا المتداول بكلمة "الضمير"، ويسميه علماء النفس "الذات العليا"، وهو الذي عبر عنه القرآن بصفة "النفس اللوامة"، والتي بلغ من أهميتها وعظمتها أن أقسم بها الله ذو العظمة والجلال (أجمع المفسرون على أن "لا أقسام" في الآية بمعنى "أقسام"، واختلفوا في تفسير "لا" على تفصيل تجدونه في كتب التفسير).

هنا تأتي مسؤولية المربين من والدين ومعلمين، فكلما كانوا أميلًا إلى القسوة ابتعد أبناؤهم وطلابهم عن الإنسانية واقتربوا من البهيمية، وكلما كانوا أقرب إلى الرحمة صار الأبناء والطلاب أقرب إلى الإنسانية وأبعد عن البهيمية. "الإنسان" السوي - لا المخلوق الحيواني البهيمي الذي له من الإنسان صورته فحسب - هو الذي يبلغ ضميره من القوة أو نفسه اللوامة من الفاعلية درجة تجعل الضرب والحبس أهون عليه من لوم النفس وتائب الضمير!

مثل هذا الإنسان السوي إذا اعتدى على مخلوق أو آذاه فإنه يلقى من نفسه وضميره عذاباً يفوق العذاب الذي يمكن أن يوقعه عليه القانون، وذلك النوع من العقاب أعظم من كل عقاب. وإذا أحسن إلى مخلوق فإنه يلقى من نفسه وضميره مكافأة أعظم من المال والشكر والتقدير التي يمكن أن يلقاها من الناس، وذلك النوع من الثواب أعظم من كل ثواب.

-5-

وهكذا نجد أن "آلـةـ الـثـوابـ وـالـعـاقـابـ" ما زالت تعمل، ولكنها ارتفعت وارتقت من الدرك الحيواني البهيمي إلى درجة سامية راقية لا يعرفها إلا أصحاب الفطر السوية من بني الإنسان.

وهذا أمر مرجـب محسوس؛ تذكر شعورك وأنت تقدم المساعدة والعطاء للضعفاء والمحاجين تجدـ أنـكـ حصلـتـ علىـ المكافـأـةـ الفـورـيـةـ،ـ إنـهاـ مـكاـفـأـةـ السـعادـةـ وـالـرـضـاـ عـنـ الذـاتـ.

وبالمقابل يستطيع كل واحد منا أن يتذكر شعوره بعد اقتراف ذنب من الذنوب (ومن ذا الذي لم يقترف قط ذنباً؟) وكفى بمثل هذا الشعور عـقاـبـاـ لـذـيـ الحـسـ السـليمـ.

إن أصحاب الفطر الصحيحة والنفوس السوية يخضعون في أعمالهم وفي سلوكهم لتأثيرات آلـةـ الـثـوابـ وـالـعـاقـابـ،ـ ولكنـهـماـ ثـوابـ وـعـاقـابـ ذاتـيـانـ لاـ خـارـجيـانـ،ـ نفسـيـانـ لاـ بـدـنيـانـ،ـ إـنـسـانـيـانـ لاـ بـهـيـمـيـانـ.

وهذه الآلة المـحـكـمـةـ تحرس منظومة من "القيم الصالحة" التي تهدينا في درب الحياة، فتقودنا إلى النجاح والسعادة في الدنيا والـىـ مـثـلـهـماـ فـيـ الـآخـرـةـ.

هـذاـ هـوـ الـمـنـهـجـ الـذـيـ اـتـيـعـهـ النـبـيـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ لإـخـرـاجـ "الـجـيلـ الـقـرـآنـيـ الفـرـيدـ" (ـكـمـاـ سـمـاـهـ سـيـدـ قـطـبـ رـحـمـهـ اللهـ)،ـ وـهـوـ نـفـسـهـ الـمـنـهـجـ الـذـيـ يـهـدـيـنـاـ إـلـيـهـ الـقـرـآنـ لـصـنـاعـةـ الـجـمـاعـةـ الـمـسـلـمـةـ فـيـ كـلـ عـصـورـ،ـ وـلـنـ جـدـ مـنـهـجـاـ غـيـرـهـ لـإـصـلاحـ سـورـياـ وـالـسـورـيـينـ الـيـوـمـ.

إـنـهـ مـنـهـجـ إـصـلاحـ الـجـذـورـ،ـ أـمـاـ تـغـيـيرـ الـأـفـعـالـ بـالـقـوـةـ فـإـنـهـ إـصـلاحـ الـقـشـورـ.ـ شـتـآنـ بـيـنـ إـصـلاحـ الـقـشـورـ وـإـصـلاحـ الـجـذـورـ!

* * *

الخلاصة:

إن التربية الجيدة هي التي تُنشئ قيماً صحيحة سوية تحرسها "آلـةـ الـثـوابـ وـالـعـاقـابـ" الإنسانية التي فهمنا الآن طبيعة تركيبها وطبيعة عملها، وإن بناء القيم الصالحة هو الأساس المتبين لمشروع التربية كله، وكل مشروع تربوي يعتمد على تغيير الأفعال بالقوة ويرتكز على طبقة أدنى من طبقة القيم لن يكتب له العمر الطويل.

